من الادب البولندي

عدو الكذب

قصة عن الكاتب البولندي

فاسيلف سوتكي

نقلها حسين المهدي غنام

سيداتي . سادتي

يجب عليكم جميعاً ان تخجلوا من أنفسكم

قلّب رئيس المحكمة نظره في الأضابير المطروحة أمامه ، ثم صاح بالمتهم — قف ! إن اسمك «باتوسلاف ماتوشك» ، وعمرك أربعون سنة ، ولكنك ما زلت غرّاً . وقد اشتغلت في «براتسلافا» زمناً ما . ثم حولتك إدارة البريد إلى هذه البلدة ، فسببت لها كثيراً من الألم ، ونغصت على أهليها الحياة ، ولا أستطيع تعليل ذلك . ولكن لديك تخبرنا عن السبب الذي حدا بك الى فعلتك !! فأجاب المتهم بالتأكيد . ولكني لا أستطيع أن أشرح ذلك في كلمات قليلة فاسمح لي قبل كل شيء أن أؤكد لك أني كنت دائماً ، وما زلت ، بطلاً من أبطال الصدق ، بل أقول انني كنت وما زلت متعصباً للصدق تعصباً دينياً ، إذا صح هذا التعبير !

ونقل المتهم بصره من الرئيس الى الجمهور ، ووجه الكلام اليهم جميعاً ، ثم قال: والآن ، اليكم قصتي ... لقد مرّ الكثير من المراسلات بين يدي في مكتب البريد ، فأحببت أن أكوّن لنفسي فكرة عامة عن مستوى الذكاء عند سكان هذه البلدة ، وهذا لا يتسأتى الاّ بالاطلاع على رسائلهم ومكاتباتهم ، ولذا فضضت كثيراً منها ... ومن السهل ان يُفضّ الانسان مظروفاً ويقرأ ما فيه ثم يقفله مرة أخرى .. وبهذه الطريقة قرأت الرسائل والخطابات ، فرأيت أشياء لم تسرني ... إن مستوى الذكاء فيها يستحق الاشفاق ، فانه أقل من المتوسط ، ولم تحتو كتب القوم ورسائلهم الاّ على سخافات مزرية وتلفيقات وغائم وأكاذيب.

سيداتي ! سادتي ! يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم ...!

وما كاد المتهم ينهي بهذه الكلمات ، وقد وجهها الى المستمعين من أهل البلدة ، حتى تعالت صيحات السخط والحنق وكادوا يزلون به سوءاً ، غير أنه ظل هادئاً ولم يحرك ساكناً ، وغم ما بدا على الجمهور من آثار الغضب . واستمر في كلامه فقال : ... والكثرة ما قرأت من رسائل الناس تعلمت تقليد خطوطهم وتوقيعاتهم ، فهذه هي الطريقة

المثلى التي رأيتها أنجع الطرق جميعاً لتنفيذ خطتي . . . وبعد برهة استغرقت ثلاثة شهور كاملة ، وجدت نفسي قادراً على تنفيذ أولى محاولاتي . . . وذلك أن شاباً من هذه البلدة كتب خطاباً الى فتاة في بلدة « مورافسكا أوستراغا » . . . وكان هذا الخطاب غاية في الكآبة والحزن وخيبة الأمل . . . وكان فيه ثلاث غلطات نحوية فاحشة ، بله اخطاء النهجية . . . ولكني كنت قد قرأت قبل ذلك ثلاثة كتب من تلك الفتاة موجهة إلى فتاها ، وقد فهمت من هذه الرسائل ان الفتاة رضية الأخلاق سمحة الشخصية . فعزّ عليّ أن يكون كتاب الفتى محبّباً لآمالها ، فألقيت به في سلة المهملات ، وأنشأت بدلاً منه خطاب غرام مشرق الديباجة قلت فيه للفتاة « تعالي إليّ يا حبيبتي ، اني أريد أن أتزوج منك بغير إبطاء » . وقد جاءت وتزوجت فعلاً . . . ولكن ليس من فتاها الأول بل من فتى آخر ، هو صديق له ، أحبّته لأول نظرة حبّاً فاق حبها للفتى الآخر ، وعاشا زوجين سعيدين . . . وليست هذه غلطتي بطبيعة الحال . . .

وهنا قال رئيس المحكمة ولكن يظهر انك كتبت رسائل أخرى غير رسائل الحب . . .

فأجاب المتهم — نعم . . . كتبت أشياء أخرى . . . ولكن فارقاً بعيداً بين سيدة غاية ، وبين السيد « فرانتا نوفاك » . . . لقد كتب السيد « نوفاك » رسالة الى السيد « كورت » وقد ذهب الى « براجا » أسابيع قليلة ، وقال له في تلك الرسالة : « متى تعود الينا ثانية ايها العزيز كورت ؟ اني لأفتقدك كثيراً تلا أجدك . . . » . ومضى في رسالته على هذا النمط ، فلاً صفحتين . على أنّي أعلم أن رأي السيد « نوفاك » في السيد « كورت » ، رأي مخالف لما جاء في تلك الرسالة . . . وبما انه ليس من وظيفة مصلحة البريد أن تشجع الكذب ، أو تعمل على نشره في الناس ، فقد كتبت حاشية ذيلت بها رسالة السيد « نوفاك » ، مقلداً خطه بطبيعة الحال ، قلت فيها : « . . . اني لم أقصد بما كتبت اليك إلاّ السخرية منك ، فاذا أردت أن تعرف ما هو رأيي فيك حقّاً ، فما عليّ من حرج إذ قلت لك بكل صراحة : إنك سكّير عربيد وغد ندل ، خنزير كبير . . . » . . . ثم بعثت بالرسالة ، وكانت النتيجة أن السيد « كورت » ، قابل السيد « نوفاك » بعد عودته من براجا ، وحياه بلكمة على فكه .

قال المتهم هذا مستغرقاً في الضحك .

فصاح به رئيس المحكمة — أحسن من سلوكك وقوّم من تصرفك ! ولا تنس إنك متهم أيضاً بسرقة أشياء أخرى أرسلت بالبريد . . .

قال المتهم اني أعلم حقيقة ما تشير اليه ، ولكن هذه ليست سرقة ، أما ما حدث بالضبط فكان هذا : «ذات يوم تسلمنا رسالة من پاريس ، عليها هذا العنوان (السيد

الكونت « مونت كريستو » الثاني ، يحفظ بشباك البريد) . فما قرأت هذا العنوان أخذت بغرابته فاشتبهت فيه ، فقضت الرسالة ، ووجدت بداخلها ثلاث صور ... أتعلم ما هي ؟ إنها ثلاث صور بذيئة وضيعة سافلة ... ولم تكن بالصور التي ربما قد يذهب إليها خيالك . ولكنها قبضت نفسي ، على أية حال ، وجعلتني أشمئز من منظرها ، ومن السيد الذي كانت مرسلة إليه . ولكي أعلن عن اشمئزازي لهذا السيد ، ألقيت بالصور القذرة الثلاث في الوقد ووضعت بدلاً منها ورقة أخذته من الرماض ، حتى أؤكد لهذا السيد تقززي من الصور المرسلة إليه ... ولكن . . هل تستطيع أن تتصور أو تتخيل من ذا الذي جاء في اليوم التالي لاستلام تلك الرسالة وما تحوي من صور ؟ لا أظنك تصدق هذا ... ولكنها الحقيقة ... فالذي جاء لم يكن غير السيد « كارل دوستالك » ، عمدة هذه البلدة بنفسه . . . هذا الرجل الذي يحترمه كل انسان ، وهو والد ستة أبناء . . ! »

وعندما انتهى المتهم من هذا الكلام انفجر الجمهور المتفرج ضاحكاً . . . وكان « دوستالك » ، عمدة البلدة ، رجلا متديناً ، قوي البنية ذا لحية كبيرة بيضاء ورأس أصلع ، . . . فلما سمع هذا الكلام ، وقف ساكناً ، ومسح أنفه بمنديل كثير الألوان ، وخرج من قاعة الجلسة يدلف صامتاً من غير أن ينبس بكلمة واحدة . . .

وصاح رئيس المحكمة — إني أمنعك من افشاء أسرار البريد ، وإلاَّ رفعت الجلسة . .

وعندئذٍ مال عضو اليمين على رئيس المحكمة يهمس في أذنه . وكاد الرئيس يجيبه لولا أن فاجأه المتهم قائلاً : « . . . لا تقلق بالاً الى ما يقول مستشارك ياسيدي الرئيس ، إنه غير أهل لصداقتك . . . »

وصاح الرئيس بالمتهم — أمسك لسانك ! . . لا تتدخل في شئون لا تعنيك

المتهم — حسن . . . هذه أمور لا تعنيني حقاً . . ولكنك تحملني إذ تعامل مستشارك معاملة الأكفاء ، فهل تعلم ماذا قال عنك في إحدى رسائله ؟ . . . »

وأخرج المتهم ورقة كبيرة ومضى يقرأ « . . . إني لم أرَ في حياتي ، رجلاً أكثر غفلة من رئيس محكمتنا . . . »

ولم يستطع رئيس المحكمة أن يسمع بقية رأي مستشاره فيه ، فرفع الجلسة ، وخرج مندفعاً من القاعة غاضباً ، يتبعه عضو اليمين صائحاً إنه سيوضح له كل شيء ، ولكن الرئيس رفض أن يصغي اليه . . . وجلس المتهم ، ووقف خلفه أحد ضباط البوليس .

والتفت المتهم الى الضابط وقال : لست أفهم لماذا يكذب الناس هذه الأكاذيب الكثيرة ، ويظهرون غير ما يبطنون . لو أنهم لم يقولوا غير الواقع ، لأصبحت الدنيا أجمل بكثير مما هي ، وامتلأت فيها سعادة !